أسرار الضمائر
أو رأي في جذور الضمائر العربية

الاستاذ محمد محمد الخطابي

اطلعت على مقالة الاستاذ محمد التونجى (أستاذ اللغات الشرقية والسامية المساعد بجامعة بنغازى) التى ضمنها رأيه فى جذر الضمائر العربية حيث تعرض الى أصل هذه الضمائر فردها جميعا الى الهمزة (أ) بصفتها أقدم حرف نطقه الانسان الاول ، وضرب لذلك عدة أمثلة بطريقة مبسطة لا يصعب على القارىء العادى ادراكها وفهمها .

وجميل من الدكتور التونجى أن يتعرض لهذا الموضوع الذى يعد فى الواقع من أطرف الموضوعات اللغوية وأصعبها وأكثرها اثارة لفضول اللغويين على اعتبار أهميته وخطورته بالنسبة لباقى المسائل اللغوية الاخرى .

وجميل من الدكتور التونجى كذلك أن يسلك فى هذا الموضوع طريقة « خير الكلام ما قل ودل » حيث استطاع أن يقدم فى أربع صفحات من خط اليد هذه المسألة الشائكة التى بسطها عبد الحق فاضل فى (105) صفحات من كتابه « مغامرات لغوية » .

وجميل منه للمرة الثالثة أن يخدم بذلك العربية وابناءها بتطرقه لهذا الموضوع الحيوى بأسلوب سهل ميسر لا يتطلب كبير عناء لادراك الفكرة الاساسية التى كتب من أجلها رأيه فى جذر الضمائر العربية ..

ولكن سيكون أجمل من هذا كله ، لو انه اشار ضمن مقاله الى من سبق وعالج هذا الموضوع بالذات من المحدثين ممن يعرفهم أو لابد انه قرأ لهم فى مجلة « اللسان العربى » التى يعد الدكتور التونجى من أبرز كتابها « واعنى به الباحث اللغوى الكبير الاستاذ عبد الحق فاضل واذكر اننى قرأت ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع منذ أزيد من عشر سنوات ، أى منذ عام 1966 بالتحديد ! حيث اطلعت على أول بحث له فى هذا القبيل فى العدد الرابع من مجلة « اللسان العربى » فى مقالة بعنوان : « لمحات من التأثيل اللغوى » ثم قرأت له كذلك — عن نفس الموضوع — فى العدد الخامس 1967 من نفس المجلة المذكورة فى مقالة بعنوان : « اسرار

الضمائر » واخيرا فى كتابه المعروف : « مغامرات لغوية » · اقول ، كان على الدكتور التونجى ــ على الاقل ــ ان يشير فى مقاله الى أن الاستاذ عبد الحق فاضل قد سبق الى الكتابة عن هذا الموضوع حيث عالج بالتفصيل نفس المسائل التى وردت فى مقالة الدكتور التونجى فكان حريا به الا يغفل هذه الملحوظة خصوصا وانه يعالج ذات المسألة بل انه ساق لها الكثير من الامثلة التى جاء ذكرها فى بحوث الاستاذ عبد الحق فاضل فى هذا الصدد والتى لا بد انه اطلع عليها أو على الاقل على واحد منها سواء المنشور فى العددين الرابع أو الخامس من « اللسان العربى » أو فى كتابه المؤلف ــ السابق الذكر ــ « مغامرات لغوية » الذى كان له الصدى الطيب بين لغويى العرب المحدثين ، ولكى اكون موضوعيا ولا اكتفى بالاشارة النظرية ارى من الضرورى ان اعقد بعض المقارنة السريعة « بالحرف » بين ما ورد فى مقالة الدكتور التونجى وبين ما كان قد كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع منذ عشر سنوات أو تزيد ·

فاذا تناولنا مقالة الدكتور التونجى وتتبعناها سطرا سطرا تبين لنا مقدار التشابه بين الافكار ولا أقول العبارات التى جاءت فيها عن جذور الضمائر العربية ·

ولنبتدىء بعبارة الدكتور التونجى التالية : « ومن البديهى ان يكون الصوت « آ » اول حرف نطقه انساننا الاول فى الجزيرة العربية · ولهذا فانه استخدمه فى النداء والاستغاثة والترحم والتنبيه والحث والضجر والتصديق والاجابة · فاذا تألم الانسان نطق بلا وعى منه لفظة « آى » واذا اراد التصديق على أمر قال « ا » أو « آ » حسب المنطقة التى نشأ فيها واذا استفهم على أمر نطق « ايه ؟ » والهاء للوقف طبعا ، وهكذا » ·

واليك عبارة الاستاذ عبد الحق فاضل من كتابه « المغامرات » ص 249 حيث يقول فى هذه النقطة بالذات : « كان موفقا جدا ذلك المثقف العربى القديم ، المجهول ، الذى جعل الهمزة اول الحروف العربية لانه الصوت الطبيعى الذى ينطقه البشر فى جميع الاقوام ، منذ اقدم العهود فيما يظهر ، ويستعمله الانسان العربى ــ ما يزال ــ فى التعبير عن مختلف حالاته الانفعالية والبيانية ، من انين ، « اه » ، وتعجب (آه !) ؛ واستزادة (ايه !) ؛ وضحك (اه ، اه ، اه ··) ؛ ونداء (آ ، أ ،،) ، واستفهام (ا ؟) ، وايجاب مع القسم (اى) ،،؛ حتى بعض الحيوانات تنطق بالهمزة احيانا عند ما تصيح ، فتهمز صوتها اى تبدؤه بالهمزة » ·

وبين للقارىء مقدار التشابه بين مضامين هاتين العبارتين · ولا بأس كذلك أن نورد عبارة اخرى للاستاذ عبد الحق فاضل فى مجال حديثه عن الهمزة كضمير عام يقول : (فى نفس الكتاب ص 255 ، وبرهانا على ما ذكرنا من أن الانسان العربى الاول استعمل الهمزة ضميرا عاما للدلالة على مختلف الاشخاص أو الاشياء نذكر أن الانكليز ما زالوا يستعملون تلك الهمزة بصورتها البدائية (اى I بمعنى : أنا ؛ وينطقها الايطاليون بكسرة تليها ضمة (ايو ــ io ، أما الاسبان فينطقونها بحذف الهمزة (يو ــ yo فى بعض اللهجات و (جو ــ jo فى الفصحى بينما ينطقها الفرنسيون جه ــ je أما (ايكو ــ ego اللاتينية فيظهر انها من io الايطالية وقد ورد هذا الضمير فى الصينية ــ وياللعجب ــ بصيغة (وو wo الخ ،، الخ ·

ولنتمعن كذلك هذه العبارة القصيرة للدكتور التونجى « واذا اراد العربى أن يتكلم عن نفسه لفظ الحرف « ا » واشار بيده الى نفسه ، واذا خاطب من امامه قال « ا » واشار اليه كما انه اذا اشار الى الغائب قال « ا » واشار بأصبعه الى الخلف · ولا زالت (كذا) الاشارة بالبنان تقوم مقام الضمائر حتى الآن الخ ·

ويبدو أن هذه العبارة مقتبسة بشىء من التحوير لا يكفى لينسينا انها مقتبسة من قول الاستاذ عبد الحق فاضل : « لهذا يبدو لنا أن الانسان العربى

مزج لغة الصوت بلغة الضوء فأخذ يقول (آ) لينبه الآخرين اليه ويشير الى نفسه يعنى (أنا) ، أو يقول (آ) مشيرا الى مخاطبه يعنى (أنت) ، أو مشيرا الى شخص آخر أو شيء ما يعنى : (هذا ، ذلك ، هـــو ..)

ولكى نعفى القارىء الكريم من هذه الاطنابات خير له ان يراجع ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع بالتوالى فى العددين الرابع والخامس من « مجلة اللسان العربى » أو ما جاء فى صفحة 247 من كتابه « مغامرات لغوية » ثم يقارن ذلك بما كتبه الدكتور التونجى فى المقالة المنشورة فى هذا العدد من هذه المجلة .

ونحن اذ نقدر للدكتور محمد التونجى اهتمامه بهذا الموضوع وتطرقه فيه كذلك لبعض الضمائر فى اللغات السامية بهذا الاسلوب الشيق الجميـــل ، والعرض الممتع الموجز كنا نتوقع منه ان يشير مـــن قريب أو بعيد الى ما كتبه الاستاذ عبد الحق فاضل عن هذا الموضوع بالذات حيث أوضح بالتفصيل كل ما يتعلق بهذه الضمائر من أسرار كما تحدث باسهاب عن نشوئها وتسلسل بعضها من بعض فى اللغـــة العربية واللغات الآرية وليس قصدنا من وراء كتابة هذه الملحوظة الانتقاص من مقالة الدكتور التونجى وانما النزاهة العلمية تقتضى منـــا ان نلفت نظـــر القارىء الكريم الى هذا الامر ، ومع تقديرنا الكبير لجهود الرجلين فى خدمة لغتنا العربية الحبيبة التـــى قدما لابنائها الكثير من البحوث الجـــادة فى شتـــى الميادين العلمية واللغوية ، نتمنى لهما مزيـــدا مـــن النشـاط والتوفيق والعطاء المثمر .